

نتائج البعثة و دروسها: إنجاز الأعمال المستحيلة

إنّ بعثة رسول الإسلام الأكرم (ص) قد أنجزت شيئاً كان يبدو مستحيلاً، وغير ممكّن. ماذا كان ذلك؟ لقد شكلّت من أهالي جزيرة العرب في زمن الجاهلية، التي سأصف الآن خصائصها، أمّة ذات فضيلة مثل الأمّة الإسلامية في زمن النبي (ص) نفسه. مثل هذا الشيء كان يبدو مستحيلاً بالنظره العرفية والعادية. كان لأهالي الجزيرة العربية في زمن الجاهلية، قبل بعثة النبي (ص)، خصائص ذُكر بعضها في نهج البلاغة، وبعضها في التاريخ: أناس ضالّون، تائهون، بلا هدف، جاهلون بشدة، مصابون بالفتنة الكبيرة، الفتنة الناجمة عن العصبيّات والجهالات الكبيرة... وفي الوقت نفسه مع جميع هذه الصفات التي ذكرناها هم متكبرون بشدة، عنيفون بشدة، لا يتقبّلون الحقّ، لجوجون. كانت هذه خصائص أهالي الجزيرة العربية. وكان في أهالي مكّة وسائر المناطق في ذلك الحين، من شيوخهم وأصغرهم ورؤسائهم ومرؤوسيهم، هذه الخصائص. جاء النبي الأكرم (ص) من هؤلاء الناس أنفسهم، وصنع في مدة قصيرة أمّة موحّدة، ذات فضيلة، ومتسامحة، ومُضحية، وتملك أسمى الأخلاق. انظروا إلى المسلمين في زمن النبي (ص)، سواء عندما كانوا ينحصرون في المدينة أو عندما انتشرّوا في مكّة والطائف وبعض الأماكن الأخرى. لقد حول النبي أولئك الأشخاص أنفسهم إلى أشخاص كهؤلاء. كان هذا يبدو غير ممكّن. لم يكن من الممكن بأيّ حساب أن يتحول في مدة قصيرة مثل أولئك الناس إلى مثل هذه المجموعات. ثم في أقلّ من عشرين عاماً اكتسبوا صيتاً عالمياً. لم يكن قد مرّ أكثر من عشرين عاماً على اعتناقهم الإسلام حتى اكتسب هؤلاء الناس أنفسهم الذين كانوا بتلك الخصوصيات الأخلاقية شهرة عالمية، واستطاعوا نشر فكرهم ومعرفتهم وعظمتهم في شرقيهم وغربيهم، وبتعابير اليوم: من ناحية الأجهزة ومن ناحية البرامج أيضاً. هذا ما فعله الإسلام، وكان ذلك العمل غير ممكّن حقاً. البعثة حقّقت ذلك.

بعثة النبي (ص): تعزيز العقلانية وتنمية الأخلاق من أبرز العناصر القيمية للإسلام



إنّ بعثة الرسول المكرّم (ص) هدية للبشرية جمّعاً أيضاً. إذا أخذنا بالاعتبار قيمتين من بين قيم الإسلام الوفيرة -سلسلة القيم الإسلامية مجموعة واسعة جداً من القيم الإسلامية-. وهما عنصر «تعزيز العقلانية» وعنصر «تنمية الأخلاق»؛ إذ إنّهما بارزتان بين هذه القيم، وإذا أخذنا بالاعتبار ما أكّده الإسلام تجاه هذين العنصرين، فإنّنا سنتيقّن أنّ الإسلام قد أعطى البشرية أسمى هدية ووسيلة للسعادة. إنّ الإسلام يدعو إلى العقلانية وتعزيزها، وهذا أمر مهمّ جداً. يوجد في القرآن عشرات الموارع، وإذا عمل شخص على عدّها، فقد يكون هناك نحو مئة موضع دعا فيها الله تعالى المخاطبين والناس إلى التفكّر والتعلّق بتعابير مختلفة: بتعابير «تعقولون»، بتعابير «أولي الألباب»، بتعابير «أولي الألباب»، بتعابير «يتدبّرون».

في ما يتعلّق بتنمية المفاهيم الأخلاقية والتربية الأخلاقية، يكفي أنه ذكر الأخلاق والتزكية في مواضع عدّة من القرآن على رأس أهداف البعثة: **«هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتَلَوَّ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ»** (الجمعة، 2). التزكية أولاً. وكذلك في آيات أخرى: **«لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتَلَوَّ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ»** (آل عمران، 164). توجد مواضع أخرى في القرآن تحديد الهدف من البعثة أنه «التزكية». التزكية في مقدّم أهداف البعثة. لذلك أعطى الإسلام هاتين القيميتين الساميّتين والفرديّتين للإنسانية وحرص عليها، كما دعا المؤمنين ثم جميع البشر إلى التعقل والتفكير والتزكية. ونحو ذلك، وهذه أعظم هدية يمكن أن يعطيها الإسلام للبشرية، وقد أعطاها.



إنّ بعثة رسول الإسلام الأكرم (ص) قد أنجزت شيئاً كان يبدو مستحيلاً، وغير ممكّن.

ما زَانَ ذَلِكَ؟

لقد شكّلت من أهالي جزيرة العرب في زمن الجاهلية، أمّة ذات فضيلة مثل الأمّة الإسلامية في زمن النبي (ص) نفسه.

إظهار تجربة التحرّك في خطّ البعثة

لقد حدّثت تجربة البعثة -مع بعض الاختلافات طبعاً- لشعب إيران، والله تفضّل وأعطى شعب إيران هذه التجربة، وأظهر الله المتعالى نجاح هذه التجربة لشعب إيران، وكان ذلك القضاء على النظام الملكي في هذا البلد؛ إذ كان للملكية المطلقة والنظام الملكيّ الظالم والجائر والمستند إلى القوة المادية ولم يشم رائحة المعنوية جذوراً تاريخية طويلة جدّاً. هنا حدثت تلك الواقعة في البلاد، عندما كان سند هذا النظام الملكي في البلاد أمريكا أيضاً والقوى العظمى في العالم. لقد دعمت كلّ من أمريكا وبريطانيا وفي وقت متّأخر أيضاً الاتحاد السوفياتي السابق حكومة بهلوى، لكن الشعب الإيراني استطاع أن يقتل جذور هذه الحكومة -الأمر الذي كان يبدو غير ممكّن حقاً-. ويحقق ذلك ببركة القيادة المخلصة للإمام الخميني (رض). وبهمة الناس العالية وتضحياتهم، تحقّق هذا العمل. طبعاً، نحن كنا في الميدان، وعلى اطّلاع. في ذلك اليوم، لو قيل لأيّ واحد منّا إنّ مثل هذا الحدث يمكن أن يحدث، فلم يكن أمراً قابلاً للتصديق جدّاً لنا، لكنّه تحقّق. إنّا إذا تحركنا في خطّ البعثة، فسنجعل المستحيل ممكناً وسنكون قادرين على الوصول إلى الأهداف التي تبدو غير قابلة لذلك.

تشكيل الحكومة ذرّة النهضة النبوية

النقطة الأخرى في قضيّة بعثة خاتم الأنبياء (ص) أنها خلافاً لرأي مَنْ يُعرّفون الدين أنه منفصل عن السياسة، إذ يفصلون الدين عن الحياة والسياسة والحكومة تماماً -هناك فئات مختلفة تعمل في هذا المجال أيضاً، وكانت موجودة في السابق أيضاً، وأحبّطت هذه المحاولة بالحركة الثورية، ولكن يرى المرء أن بعض الأشخاص قد بدؤوا الهرس بهذا مرّة أخرى عبر الكتابة والقول وما شابه-. كانت ذرّة النهضة النبوية هي تشكيل الحكومة التي أنشأ النبي (ص) بنفسه مقدّماتها وهيّأ أرضيتها. تحدّث الرسول الأكرم (ص) مع وجهاء المدينة الذين كانوا قد سمعوا بصيّت الإسلام، وجاؤوا ليروا ماهية القضيّة، وتعاهدو واتفقا معهم، ووجهاء يثرب مهدوا الأرضيّة، ثمّ بدأ النبي الأكرم (ص) هجرته بتلك الطريقة العجيبة، ثمّ بدأت هجرة المسلمين، وجاء المهاجرون تدريجيّاً. قبل الهجرة أرسل النبي (ص) مصعب بن عمير مندوباً إلى هناك ليتلّو آيات القرآن على الناس. لقد وفر هذه المقدّمات، ثمّ هاجر (ص) إلى يثرب، وأنّشأ الحكومة الإسلامية هناك. كانت هذه نقطة الذرّة لنّهضة النبي (ص). ولم يكتف بهذا؛ بل قد بدأ مواجهة الأعداء على الصعد كافية؛ لأنّ الأعداء لم يكونوا ليتركوا المسلمين وشأنهم. فشكّل جيشاً وجهز معدّات الحرب، وهاجم الأعداء، وفي بعض الحالات دافع، وفي بعض الحالات هاجم. كلا النوعين موجود. إنّ بعض الأشخاص الآن يقولون إنّ حروب الرسول (ص) دفاعية بحت. كلا! بعضها كانت دفاعيّة وبعضها هجوميّة. كانت الظروف مختلفة. ثمّ فتح معسكر الشرك؛ إذ كان معسكر الشرك في مكة. ففتحها وصار بيت الله في تصرّف الإسلام والمسلمين. لقد أرسى الحكومة الإسلامية. هذا هو الجزء الأكثـر حماسة في النهضة الإسلامية. كيف يريد أولئك الأشخاص الذين يعملون على هذه المحاولة أن يفصلوا الإسلام والدين عن الحكومة؟

رواج أنواع الرذائل الأخلاقية في الجاهلية الغربية الحديثة واصطدامها منطق لها

رسول الله



إن كثيراً من تلك الرذائل الأخلاقية نفسها التي كانت سائدة في مكة في ذلك الوقت، وشائعة في شبه الجزيرة العربية، وقد واجهها النبي (ص)، يوجد اليوم كثير من تلك الرذائل الأخلاقية نفسها، وبصورة منظمة وبشدة أكبر وعلى نطاق أوسع بكثير في ما يسمى العالم الغربي المتحضّر. توجّد تلك الرذائل الأخلاقية نفسها تماماً بمقاييس أكبر اليوم وبأقصى شدة.

فالحياة في الحضارة الغربية اليوم تقوم على أساس الطمع والحرص، وعلى أساس الجشع. أصلاً أساس الحياة في الحضارة الغربية اليوم هو الحرث والطمع. واليوم أساس القيم الغربية كلّها هو المال، فكلّ شيء يقاس بالمال. الأخلاقيات والروحانيات وكلّ شيء يقاس بالمال! هذه هي المعايير. السياسة الرائجة والسلطات الحاكمة كلّها في خدمة التمييز وتسمين الشركات و«الكارتلات». هذه هي الحال اليوم على هذا النحو. العلم والتكنولوجيا «يُستغلان» في خدمة قتل الناس. تارة يستخدم العلم، على سبيل المثال، من أجل لقاح أو دواء ينقذ عدداً من الناس لكن يستخدمون هذا العلم لصنع أسلحة دمار شامل، أسلحة كيميائية وأسلحة نووية، فتقضي على الناس بمئات المرات من ذلك العدد وتقتلك بهم. هذا حدث في العالم ويحدث الآن أيضاً. «كذلك» نهب الدول الضعيفة الابتذال الأخلاقي... الابتذال الأخلاقي والهرج والمرج الأخلاقي موجودة بشدة. قضية المثلية الجنسية وما في حكمها - هي مخزية حقاً، ويخرج المرء من تكرارها وقولها - والهرج والمرج الجنسي الفظيع! هذه الأمور موجودة في العالم اليوم. إنها تلك الأشياء نفسها التي كانت في ذلك اليوم، وهي عينها موجودة اليوم أيضاً. لكن في ذلك اليوم كانت محدودة، وهي اليوم على نحو واسع ومنظم. وخلف كثير من هذا الفساد والمفاسد أنشئ منطق مصطنع، أي أنشئوا لها مرتکبات منطقية وفکرية، وينشؤون لها أنسنة فكرية ويقدمونها إلى البشرية.

إذاً، هذه الجاهلية موجودة اليوم. ولذلك إذا وصف أحد الحضارة الغربية اليوم بـ«الجاهلية الحديثة» - فعلًا وصفوها، وكثيرون قالوا: «الجاهلية الحديثة» - فإنه محقّ. فالجاهلية هي تلك الجاهلية نفسها حقاً، لكنّها اليوم تُظهر نفسها في العالم بشكل مُجدد ومُحدث.

مواجهة النبي (ص) للجاهلية

من أهم شعارات الرسول الأكرم (ص) وتوجيهاته فيبعثة مواجهة الجاهلية. لقد قُبّحت الجاهلية في القرآن مراراً. إنّ تعبير الجاهلية قد قُبّح في القرآن مراراً. في سورة المائدة: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَهُ» (50)، في سورة الأحزاب: «وَلَا تَبْرُجَنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى» (33)، في سورة «إِنَّا فَتَحْنَا»: «إِذْ جَعَلَ الدِّينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيمَةَ الْجَاهِلِيَّةَ» (الفتح، 26)، ولقد قُبّحت الجاهلية في بعض الموضع الآخر من القرآن أيضاً، لكن لدى الآن هذه الآيات الثلاث في ذهني، ودونتها هنا.

ما هذه الجاهلية؟ المراد منها ليس مجرد الأممية والجهل. طبعاً الأممية ضمنها، لكن هذه الجاهلية لها معنى أوسع. فالأخلاقيات الدينية ضمن هذه الجاهلية، وتصرفات الناس الوحشية: قتلهم البشر، سرقتهم، اعتدائهم، استباحتهم الحق، استقواؤهم على الضعيف... كلّها كانت رائجة بين أهالي الجزيرة العربية، وهذه كلّها ضمن تلك الجاهلية نفسها. «أيضاً» الابتذال الجنسي، والهرج والمرج الجنسي، والابتذال الأخلاقي، وانعدام الحياة بين الناس. هذه الأمور كانت موجودة، وضمن تلك الجاهلية. لقد واجهت بعثة هذه الأمور كلّها؛ أي جاهلية «وَلَا تَبْرُجَنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى»، التي كانت تخاطب أزواج النبي (ص) في سورة الأحزاب هي شيء من هذا القبيل.

الجهل والأمية والجهالة، وأيضاً سوء الخلق والظلم والتمييز والاستقواء على الضعيف، وأيضاً الابتذال الجنسي والإباحية، والهرج والمرج الأخلاقي... كلّها ضمن الجاهلية. حسناً، إنّ النبي (ص) حارب الجاهلية.

جاذبية أنموذج الثورة الإسلامية لشعوب العالم

لا يمكننا الادّعاء أنّا حقّقنا أهدافنا وغاياتنا في هذه الأعمال العظيمة. لا! نحن في منتصف الطريق في هذه الخطوات الكبيرة كلّها. لا شكّ في ذلك. طبعاً توجد أعمال قد أنجزت وأحرزنا تقدّماً -بحمد الله- لكن في هذا كلّه لا نزال في منتصف الطريق، وما زلنا بعيدين جدّاً عن الوصول إلى الهدف. مع ذلك، ورغم أنّنا في منتصف الطريقن وأمامنا مسافة كبيرة إلى الهدف، فإنّ أنموذج الثورة الإسلامية وأنموذج الجمهورية الإسلامية أنموذج جذاب لشعوب العالم، أو ل الإسلامي العالم على الأقل. التفتوا! ترون أنه على بعد آلاف الكيلومترات من طهران، وفي بلد آخر (مدينة كشمير)، تحدث إهانة لصورة شهيدنا العزيز الشهيد سليماني، فيُظهر الناس ردّ فعلهم، وتُجبر الشرطة التي فعلت نفسها هذه الإهانة على الاعتذار ومراعاة الشعب، ثمّ تثبت مجدداً تلك الصورة في مناطق من المدينة، على سبيل المثال. هذا نموذج، وهو جذاب ويشير إلى أنّ هذا النموذج لديه قدرة جذب عالية. هذا العمل، وهو لا يزال في منتصفه، جذاب

أيضاً. إذا تمكنا من الاستمرار في هذا الطريق بأسلوب مناسب، وإذا تمكنا من المضي قدماً بإتقان، فسيكون هناك أنموذج فعال وجذاب للغاية في العالم، وستتوّجه الشعوب نحوه بصورة طبيعية.

واجباتنا مقابل الجاهلية الحديثة

يجب أن نراجع دروس البعثة. والعمل نفسه الذي أداء النبيّ الأكرم (ص) في مواجهة تلك الجاهلية هو على عاتقنا اليوم. لا بدّ أن نفعل تلك الأعمال في مواجهة هذه الجاهلية؛ هذا واجبنا. منها في الدرجة الأولى تقوية الإمامان الدينية، وتعزيز الجماعات المؤمنة والمقاومة في أنحاء العالم كافة. فليعمل الذين لديهم دوافع دينية وإيمان وأهل المقاومة وليبذلوا الجهد؛ ينبغي تعزيز هذه «الأمور». وتعزيز قوّة النظام الإسلاميّ ومتانته. الآن -بحمد الله- تم تشكيل نظام في جمهورية إيران الإسلامية برأية الإسلام وتحت رايته. فلنعمل على تقوية هذا واستحكامه، ولنجعل أسسه أكثر إحكاماً قدر الإمكان، ولنوسع ثماره وأثاره قدر الإمكان.

من توجيهات الإمام الخامنئي دام ظله
التجربة النبوية وبشارة المسلمين



يمكن أن نستفيد من هذه الواقعة (البعثة) اليوم؛ بمعنى أنها بشارة للمسلمين جميعهم عبر التاريخ أنه في أيّ وقت استقرّت إرادة الناس على خطِّ الإرادة الإلهية، وصارت تابعة لهذه الإرادة، يمكن للبشر أن يفعلوا عملاً تبدو غير ممكناً، ويمكنهم الوصول إلى أهداف بالنظرية المتعارفة ووفق الحسابات هي بعيدة عن متناول الإنسان. الأمر هكذا دائماً. هذه التجربة النبوية قابلة للتكرار على مرّ التاريخ. إذا استقرَّ البشر في ذلك الخطِّ، يمكنهم الوصول إلى أهداف سامية كانت تبدو غير ممكنة بالنظرية وبالحسابات العادلة.